مساهمة الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي في حماية عقيدة وهوية المجتمع الجزائري

د/ زهرة لحلح
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

I–المولد والنشأة:

هو أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن ربيح بن محمد بن عبد الرحيم بن سائب بن منصور بن عبد الرحيم بن أيوب بن عبد الرحيم...بن أبوزيد بن علي بن مهدي بن صفوان بن موسى بن عيسى بن محمد بن عيسى بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن فاطمة بنت رسول الله، فهو بذلك ينتمي إلى العترة الطاهرة الذين دخلوا الجزائر حوالي القرن 16هـ، وقد كان جده بن أبو زيد أول من دخل من هذه السلالة وهو يعتبر جد معظم الأشراف الموجودين في مناطق الهضاب العليا وشمال الصحراء كما أكد ذلك كثير من الأساتذة الباحثين المعاصرين ومن قبلهم العلماء والحكام أمثال الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، وقد شهدت السلطات التركية بانتماء عائلته إلى آل البيت وذلك في وثائق رسمية صادرة عن الدايات بالجزائر وشهادة الشرف لا

تمنح من طرف الأتراك إلا بعد التأكد من صحة النسب لأن ذلك يعني سقوط الضرائب عنهم وتمنعهم بحماية الدولة[1]

ولد الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي في أول محرم 1823هـ/1238م كما هو موجود في وثيقة الشرف التي أعدت بإشراف الشيخ محمد بن الحاج بالبادية قرب حاسي بحبح، في شمال الصحراء بجنوب الجزائر بالحامدية في (ضاية الحرث) ناحية جبل تاسطارة في بلاد أولاد الغويني، وهو من عائلة كريمة متمسكة بالدين، متحلية بالخلق الكريم، والاستعداد للنبوغ في العلم والتفوق في كنف أسرته المغرمة بالعلم، والفضل والتمسك بالدين فنشأ على الصفاء والأخلاق الحسنة وحب العلم، وطبعته الصحراء بالفصاحة والشجاعة، وقد كان في أسرته من يحفظ القرآن، ويقوم بتعليم أبناء البادية دينهم وهو سي محمد بن عبد القادر.

وما إن بلغ سن الثالثة عشر حتى أتم حفظ القرآن هذا بالإضافة إلى بروز مواهبه النادرة في باديته، أين علا نجمه وداع صيته بين أهل بلدته، غير أن الشيخ الهاملي ما لبث أن تاقت نفسه إلى إتقان القراءات السبع والتجويد وهما الفنان اللذان يعتني بهما كل الحفاظ، ولذا كان على الشيخ الهاملي أن يتطلع بشغفه العلمي صوب بلاد القبائل سنة 1836م بوصفها من منابع العلم التي يرابط فيها علماء صالحون وهبوا أنفسهم للجهاد بعلمهم في سبيل كل من قصدهم[2]

---

1 محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، (الجزائر، المطبعة التعاونية، 1385هـ-1965م)، ج1، ص ص56، 57 والموقع الإلكتروني: الموقع الإلكتروني: *www.marefa.org* 7 نوفمبر 2009م.

2 سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، موسوعة أعلام الجزائر (1830م-1954م)، ص354، ومحمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط2، (تونس، المكتبة العتيقة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405هـ-1985م)، ج2، ص348.

ولما بلغ الشيخ الهاملي سن الثالثة عشر ارتحل إلى بلاد القبائل، فنحى صوب زاوية (علي الطيار) بمنطقة البنيان رفقة أخيه الحاج محمد، فأقام بها سنتين أتقن خلالها القراءات السبع والتجويد، واستعد للعلوم بحفظ متونها.

ثم كانت الوجهة الموالية إلى زاوية (ابن أبي داود) في (ازواوة) التي كان يتولى التدريس بها الشيخ أحمد بن أبي داود وقد وجد فيه الشيخ الهاملي المنبع الغزير لكل علم والإخلاص وبدل العون فأخذ عنه علوم الشريعة وأتقنها[1]([3])، ولطالما شهد له أستاذه بالذكاء الوقاد، وندرة حافظته وشدة تمسكه بدينه.

II-بداية الكفاح بالكلمة والحفاظ على الهوية الوطنية:

لقد كان إعجاب الشيخ أحمد بن أبي داود، بشخصية الشيخ الهاملي، مسوغا كبيرا لاختياره كمدرس للتلاميذ وواعظا للعامة في أحد المساجد التابعة لزاوية (ازواوة) سنة 1843م، وكان له من العمر حينئذ 20 سنة وعلى الرغم من حداثة سنه إلا أنه وفق في مهمته وتفانى في عمله وكان محل إعجاب تلاميذه وأورثهم حب العمل بشخصيته القوية.

وكذلك اقتربت منه العامة، وكثر حضورها في المسجد الذي يقوم فيه بتوضيح أصول العقيدة وغيرها من العلوم، وقد كانت فصاحته وإخلاصه في وعظه من أكثر عوامل نجاحه في مهمته الإرشادية وهو لا يزال شابا إلى الدرجة التي كان شيخه أحمد بن أبي داود، يستخلفه في الدروس العليا التي يلقيها معهد الزاوية، إذا ما سافر لما لحظ منه من نضوج العلم والاقتدار في التدريس، والكفاءة في الإدارة.

---

1 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م)، ج3، ص ص218، 219، وانظر: الحفناوي، تعريف...، ج2، ص348، وانظر: دبوز، نهضة...، ج1، ص ص57-60.

إلا أن ملازمة الشيخ الهاملي لشيخه لم تدم طويلا، لعزم الشيخ الهاملي على الرجوع إلى صحرائه يحذوه الأمل في فتح معهد بيث النهضة في منطقة شمال الصحراء، تكون بمثابة المورد العذب الذي يسهل على أبناء الشمال الوصول إليه لاكتساب الحصانة والتكوين العقدي أمام مفاسد الاستعمار التي غزت كل ربوع الوطن وأخصها الشمال، فأذن له شيخه لأنه كان يعده من أبطال المعركة التي ابتدأت الجزائر تخوضها مع الاستعمار في ميدان اللغة العربية والدين[1]

رجع الشيخ الهاملي من بلاد القبائل سنة 1260هـ-1844م وهي الفترة التي احتدم فيها جهاد الأمير عبد القادر، ضد الفرنسيين، وقد كان الأمير يرابط بجيشه في صحراء (المعيدات)، ناحية تيطري بجنوب مدينة الجزائر، وهو طريق الشيخ إلى أهله في شمال الصحراء، ولذا فقد وجد فيها فرصة للالتقاء بالأمير والتحاور معه، والإفصاح له عن رغبته في التطوع للجهاد، وشد أزر الأمير، فأسرع إلى معسكره وسلم عليه، فاستقبله الأمير أحسن استقبال، لما سمع عنه من غزارة علمه وصدق نواياه الإصلاحية وعزيمته في ميدان التربية والتكوين الديني العقدي السليم.

ثم إن الأمير ضن به على الجهاد بالسيف قائلا له: إن العامة يستطيعون رفع السلاح، غير أن القيام بنهضة الجزائر لا يطيقها إلا أمثاله، من الذين يعدهم الأمير الدواء الناجح لتحقيق الإصلاح، إلا أنه حذره من الوقوع في شراك الطرقية الخائنة لأمانة الأمة، ومن التصوف الكاذب الذي يتظاهر به الطرقيون الجهلة، وبدعهم التي تهدم الدين، ثم طلب منه بث الفكر العقدي السليم في العامة والعمل على توضيح قواعد العقيدة

1 دبوز، نهضة...، ص ص60، 61، وانظر الحفناوي، تعريف الخلف...، ص348.

الإسلامية وإنشاء أجيال من التلاميذ، الذين يرفعون راية الجهاد الأكبر وهذا بالفعل ما أضمره الشيخ بنفسه وهو عائد إلى مدينته[1]

وفي عام 1260هـ-1944م بدأ الشيخ الهاملي التدريس بقرية الهامل، ويرجح أن يكون الحجاج بعين التوتة هو نقطة البدء في مشروعه الذي عزم على تحقيقه، ففرح به أهل القرية وزهت به الهامل وشهدت حركة لم تعرفها من قبل، وتوافد على موطن الحجاج وموضع إقامتهم سكان القرى والبوادي المجاورة، أين كان الشيخ يلقي دروسه أمام تلاميذ قريته وغيرها من القرى والمدن يسمعون وعظه ويرتوون من غزير علمه، فانهالت أموال المحسنين لتغطية نفقات تلاميذه الكثر، وقد كان الشيخ في أول أمره هو المدرس الوحيد القائم بكل الطبقات: الابتدائية، الثانوية والعالية، إنه بالفعل عمل مرهق، لكنه أبدا لم يكن عائقا أمام بصيرة الشيخ الهاملي، التي كانت ترى أن الاستعمار يُعمل كل أسلحته، ليجرد الجزائر من دينها ولغتها العربية فهب للدفاع بوسيلة التوعية والإرشاد الديني العقدي، حيث كان يحضر درس الشيخ في الفقه ثمانون تلميذا أو أكثر، وفي الفنون والعلوم الأخرى كالعقيدة والتوحيد وعلم الكلام...جمهورا أكثر، واستمر التعليم على هذا النمو تسع عشرة سنة كثر فيها التلاميذ، وضاق المكان بهم، وهنا عزم الشيخ الهاملي على بناء معهد وزاوية كبرى تسع تلاميذه وضيوفه.

III-إنشاء المعهد الهاملي مركز الإشعاع الديني والعلمي:

في سنة 1279هـ-1862م شرع في بناء زاويته على جهة الغرب من قرية الأشراف، يقال له عمران فبنى منزلا للعائلة وبنى في جنبه من جهة المشرق حوشا يجلس فيه لإرشاد الخلق وتصريف أحوالهم، وبنى بجنبه مسجدا يصلي فيه الخميس مع خاصة تلاميذه

1 دبوز، نهضة...، ص64، أبو القاسم سعد الله، تاريخ...، ج3، ص218.

الملازمين له يسمى مسجد سيدي عبد القادر، يتلى فيه القرآن بمحضره كل ليلة نحو الخمسة أحزاب ويدرس فيه الحديث والنحو والتفسير ويقرأ فيه الموالد النبوية، وتنشد فيه المدائح النبوية[1]

وقد استمر البناء سنة كاملة 1862م-1863م أسفرت عن تمام بناء الزاوية والمعهد الهاملي، نسبة إلى قرية الهامل، والهامل في العامية الجزائرية هو الضال، وسميت كذلك لكون تلك القرية كانت تأوي كل شريد ضال تضيق به البلدان، فيجد فيها الرحب والكرم.

إن قرية الهامل التي كانت تضم مدرستين قرآنيتين، وبعض الكتاتيب الصغيرة عند فترة الاحتلال الأولى صارت مركز إشعاع علمي وديني عظيم ومعلما نيرا بعد تأسيس محمد بن أبي القاسم الزاوية والمعهد بها، هذا المعلم الذي أصبح مركزا هاما في المنطقة ارتاده في الفترة الممتدة من 1883م إلى 1885م ما بين 200 إلى 300 طالب سنويا يدرسهم أساتذة مجازون ومهرة –والشيخ كان من بينهم- حوالي 19 أستاذا في جميع المعارف والعلوم.

لقد انتصب الشيخ بنفسه للتدريس في المعهد، بمساعدة عدد من الشيوخ خصوصا تلاميذه الذين نبغوا في العلم على يديه، وأشهر من استعان بهم بن أخيه محمد بن الحاج، ومحمد بن عبد الرحمن الديسي[2]...وقد ندبوا أنفسهم في المعهد لخدمة الدين والعقيدة الإسلامية، فاتسع المعهد وكثر تلاميذه إذ بلغوا ألف تلميذ من بينهم سبعمائة يحفظون القرآن، والباقي للعلوم الأخرى، وصار المعهد الهاملي أكبر معهد في المغرب لا تدانيه جامعة

1 الموقع الإلكتروني: *www.marefa.org* 7 نوفمبر 2009م.

2 هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن محمد الطيب بن عبد القادر بن أبي القاسم الديسي من مواليد قرية الديس قرب بوسعادة سنة 1854م، ويعد علما من أعلام الجزائر الثقافية. سلسلة المشاريع، موسوعة...،

الزيتونة والقرويين بالمغرب في كثرة الطلبة وكانت زاوية الشيخ الهاملي تقدم خدماتها للتلاميذ مجانا ذلك أن التلميذ مكفي المؤونة مادام طالبا بالمعهد، بل إن نفقات الزاوية والمعهد وأجور المعلمين، كلها من تبرعات المحسنين الغيورين على عزة الوطن ورقيه.

ولقد اشتمل المعهد الهاملي على التعليم الابتدائي والثانوي والعالي، وكان يشترط لدخوله أن يحوز التلميذ على حفظ القرآن الكريم، أما إذا لم يكن قد حفظه فيتم إلحاقه بقسم القرآن بالزاوية، هذا بالإضافة إلى اعتيار حسن السيرة هذا وقد أكد الشيخ الهاملي على شرط حفظ القرآن، حفاظا على الهوية الدينية والوطنية العربية الذين لا ينفكان عن بعضهما.

لقد كان الشيخ رحمه الله تعالى مخلصا في عمله، يرجو دوما الحفاظ على استمرارية رسالة معهده، أما تربص الاستعمار ومبشريه، لذا فقد حرص على تثقيف الجهلة، الذين يعمل المبشرون الاستعماريون على اجتذابهم، وقد نجح فعلا في الحفاظ على الهوية الدينية العقدية، وإفشال المخطط التبشيري الذي سعى إليه الاستعمار، بتنمية الشخصية المسلمة العربية الجزائرية، والتركيز على تدريس عدة علوم في المعهد وهي: أصول الدين، والحديث، والتفسير، والفقه وأصوله، هذا بالإضافة إلى علوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والأدب، إلى جنب علوم السيرة والتاريخ والمنطق والفلك والحساب[1]

وكان الشيخ قد ابتدأ في التفسير في مرحلته الأولى بتفسير الواحدي، والحديث بشرح عبد الله بن أبي حمزة، وختم عدة وافرة من كتب الحديث المعتبرة ختمات عديدة كالموطأ، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والجامع الصغير، وشروح شمائل الترمذي.

1 الحفناوي، تعريف الخلف...، ص347، والموقع الإلكتروني: *www.marefa.org 7* نوفمبر 2009م.

ولم يكن الشيخ ليبخل بوعظه وإرشاده عمن هم خارج معهده وبلدته، بل إنه كان يسافر إلى الجزائر العاصمة ليلقي دروسا يطلب منه فيها توضيح أصول العقيدة والإبانة عن الشركيات اللصيقة بها بفعل سياسة التجهيل والتخدير.

وكان في أول أمره قد استدعاه الشيخ بن خليفة شيخ زاوية (أولاد جلال) في الصحراء الشرقية بالجزائر سنة 1267هـ ليدرس تلاميذه وينتفعوا بعلمه وأساليبه الرشيدة في إرساء البناء العقدي والتعليم السليم ليس هذا فحسب بل إن التاريخ الثقافي الجزائري لينقل لنا خبر طلبات الإجازة من الشيخ الهاملي من داخل الجزائر وخارجها، أمثال: القاضي شعيب بن علي، والمكي بن عزور.

وهكذا ذاعت شهرة الشيخ في المناطق المجاورة فتحولت إلى مركز لقاء ومنتدى علمي وثقافي يؤمه خيرة علماء البلد، ليس هذا فحسب بل إن المعهد كان مركز التقاء كبير للأعراش المجاورة ومحط رحال أولاد نايل لفك خصوماتهم والتآلف بينهم، كما كانت مأوى للعجزة والمحرومين ذلك أنه في سنة المجاعة 1285هـ/1868م أو ما يسمى عام الشر قام الشيخ بإرواء عشرات العائلات والإنفاق عليهم[1]

كما ينقل لنا التاريخ صفحات كثيرة من أعماله المشرفة ذلك أنه في سنة 1288هـ/1871م ساهم بمد ثورة المقراني بالرجال والسلاح وبعد الهزيمة أحضر أبناء الزعيم المقراني وحوالي 80 عائلة من الذين تضرروا من اضطهاد سلطات الاحتلال وأقاموا بالزاوية معززين ولا يزال حي المقارنة بالقرية شاهدا على ذلك وهذا بالإضافة إلى تلك العلاقات الطيبة التي كانت تربطه مع الأسرة الثورية في الجزائر مثل: الأمير عبد القادر وبوعزيز وكذا الأسرة العلمية كأبناء داود وكذلك أسرة محمد بن عزوز البرجي وأسرة باش

1 الموقع الإلكتروني: *ar. wikipedia.org*

تارزي بقسنطينة وبن الحفاف بالجزائر، مما حير عقول الضباط الفرنسيين وأثار دهشتهم كما عبروا على ذلك في تقاريرهم السرية التي كانوا يرفعونها دوريا إلى الحكومة العامة بالجزائر.

هذا وقد اهتم الشيخ أيضا بتعمير الأرض وزراعتها لتأمين مصدر الرزق للزاوية وجعل كل ذلك وقفا يستفيد منه الطلبة والفقراء، ثم بدأ في مرحلة ثانية بشراء الأراضي الزراعية بمناطق المسيلة والجلفة وجعلها وقفا على طلبة العلم الذين كان يدفع لهم مرتبات دائمة خاصة منهم الذين كانوا بالحرمين الشريفين كما كان يساعد العلماء والشيوخ في آداء مهامهم سواء بالمال أو الكتب من أجل الحفاظ على الشخصية الجزائرية دينا ووطنا.

VI –وفاة الشيخ:

كان للشيخ في طريق عودته من الجزائر أين جاءه جواب من عند تلامذته في بويرة السحاري يخبرونه بحدوث هرج بينهم واستدعوه للقدوم ليجري الصلح بينهم كما هي عادته فلبى دعوتهم وتوفي بعد ذلك يوم الأربعاء أول محرم 1315هـ/1897م عن عمر يناهز 73 سنة وقد اشتهر على ألسنة الناس أنه مات مسموما وهو أمر غير مستبعد بالنظر إلى الأوامر التي جاءت من السلطات العسكرية بوجوب إخراج الرجل من الجزائر العاصمة لكونه يشكل خطرا على الأمن والاستقرار فحددوا أماكن إقامته.

مات الشيخ بعدما خلف طلبة أفذاذ وكذا مؤلفات ليست بالكثيرة كما يذكر تلميذه الحفناوي لإقباله على الإرشاد واستنفاذ وقته في مجالسة طلبة العلم ومن مؤلفاته: منظومة الإسمائية التي شرحها محمد بن عبد الرحمن الديسي في كتاب أسماه الفوز[1]

قائمة المصادر والمراجع:

---

1 سلسة المشاريع، موسوعة...، ص ص355-356، وانظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ...، ج3، ص ص222-223، وانظر: دبوز، نهضة...، ص71.

1-محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، (الجزائر، المطبعة التعاونية، 1385هـ-1965م).

2-سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، موسوعة أعلام الجزائر (1830م-1954م)

3- محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط2، (تونس، المكتبة العتيقة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405هـ-1985م)، ج2، ص348.

-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م).

الموقع الإلكتروني: *www.marefa.org* 7 نوفمبر 2009م.

الموقع الإلكتروني: *ar. wikipedia.org*